قصص القرآن





قِصَّةُ قَوْمِ سَبَأ

بقلم : ا. عبد الحميد عبد المقصود
إشراف : ا. حمدى مصطفى

المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

هَذه قصَّةٌ من قصص القُرآنِ الْكريم تنْطقُ بالْعبْرة والْموعظَة والْحكْمة ..

قصَّةُ قومٍ أعْطاهمُ اللَّهُ (تعالى) من الْخيرِ الْوفيرِ ، وأفاض عليْهمْ منَ النِّعمِ الْكثيرَ والْكثيرَ ..

فلمْ يحْمدُوا ولمْ يشْكُرُوا ..

بلْ جحدُوا وبطرُوا وكفرُوا ..

قصَّةُ قومٍ قابلُوا الأمْنَ والأمانَ والرَّخاءَ والرَّفاهيةَ بالْكُفرِ والْجُحودِ والنُّكْرانِ ..

قصَّةُ قوْمٍ صدَّق عليهمْ « إبْليسُ » ظنَّهُ ، فاتَّبعُوهُ وسارُوا خلْفهُ ، فنَسُوا الْكريمَ الْمنْعمَ صاحبَ النِّعمِ ..

قَوْمٍ نَسُوا اللَّهَ (تعالَى) ، فأنْساهُمْ أنْفُسَهُمْ .. واللَّهُ (تعالَى) لا يُغيِّرُ نعمةً أنْعمها على قومٍ ، حتَّى يُغيِّرُوا ما بِأنْفُسِهِمْ ..

وهَذه منْ عُقوبَاتِ الذُّنُوب ..

لأنَّ الذُّنُوبَ تُزيلُ النِّعمَ ، والْمعَاصي تجْلبُ النِّقمَ ..

فَما زَالَتْ عنِ الْعبْد نعْمةٌ إلاَّ بذَنْبٍ ، ولا حلَّتْ عليْه نقْمةٌ إلاَّ بمعْصيَة ..

وَكَذَلِكَ الْحَالُ مَعَ الأُمَمِ وَالشُّعُوبِ وَالأَقْوَامِ .. سُنَّةُ اللَّهِ فِى خَلْقِهِ ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ، وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ..

فَحِفْظُ النِّعَمِ يَكُونُ بِطَاعَةِ اللَّهِ ، وَكَسْبِ رِضَاهُ ، وَزَوَالُهَا يَكُونُ بِالْكُفْرِ وَالْجُحُودِ وَسَخَطِ اللَّهِ ..

هَذِهِ قِصَّةُ قَوْمٍ عَصَوُا اللَّهَ (تَعَالَى) وَلَمْ يَحْفَظُوا نِعْمَتَهُ عَلَيْهِمْ ، فَضَيَّعَهُمُ اللَّهُ وَانْتَقَمَ مِنْهُمْ .. هَذِهِ قِصَّةُ قَوْمِ «سَبَأٍ» ..

فَمَنْ هُمْ قَوْمُ «سَبَأٍ» ، وَمَا هِىَ قِصَّتُهُمْ ؟!

* * *

يَنْتَمِى قَوْمُ «سَبَأٍ» إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْعَرَبِ كَانَ يُعْرَفُ بِاسْمِ «عَبْدِ شَمْسٍ» ، وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَبَى مِنَ الْعَرَبِ ، فَسُمِّىَ بِاسْمِ «سَبَأٍ» ..

وَكَانَ أَهْلُ «سَبَأٍ» يَسْكُنُونَ جَنُوبَ بِلادِ الْيَمَنِ ، فِى مِنْطَقَةٍ تُسَمَّى «مَأْرِبَ» وَهِىَ وَادٍ مُتَّسِعٌ ، أَرْضُهُ خِصْبَةٌ ، مَازَالَتْ آثَارُهَا بَاقِيَةً حَتَّى الْيَوْمِ ..

وَقَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ (تَعَالَى) عَلَى قَوْمِ «سَبَأٍ» بِالْكَثِيرِ مِنَ النِّعَمِ فِى بَلْدَتِهِمْ ، وَفِى أَمْوَالِهِمْ وَفِى أَنْفُسِهِمْ ..

فَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ (تَعَالَى) عَلَى قَوْمِ «سَبَأٍ» أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِبَلْدَةٍ طَيِّبَةِ الْهَوَاءِ ، مُعْتَدِلَةِ الْمُنَاخِ ، لَطِيفَةِ الطَّقْسِ ..

بَلْدَةٍ لَيْسَ فِيهَا حَرٌّ شَدِيدٌ وَلَا بَرْدٌ شَدِيدٌ ..

وَمِنْ طِيبِ هَوَاءِ «مَأْرِب» أَنَّ الْحَشَرَاتِ وَالْهَوَامَّ الْمُؤْذِيَةَ لَمْ تَكُنْ تَعِيشُ فِيهَا ..

فَلَمْ يَرَ قَوْمُ «سَبَأ» فِي بَلْدَتِهِمْ بَعُوضَةً وَلَا ذُبَابَةً ، وَلَا بُرْغُوثًا وَلَا عَقْرَبَ وَلَا حَيَّةً أَوْ غَيْرَهَا مِنَ الْحَشَرَاتِ الضَّارَّةِ وَالْهَوَامِّ الْمُؤْذِيَةِ ..

* * *

وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ (تَعَالَى) عَلَى قَوْمِ «سَبَأ» أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِأَرْضٍ خِصْبَةٍ صَالِحَةٍ لِلزِّرَاعَةِ ، تُخْرِجُ زَرْعَهَا وَتُؤْتِي ثَمَرَهَا بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَمَنَحَهُمْ مُنَاخًا صِحِّيًّا صَالِحًا لِلزِّرَاعَةِ ..

وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ (تَعَالَى) عَلَيْهِمْ أَنَّهُ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ بِالْمِيَاهِ الْعَذْبَةِ الْغَزِيرَةِ ، وَالْأَمْطَارِ الْكَثِيرَةِ ..

فَقَدْ كَانَتْ بِلَادُ «سَبَأ» عِبَارَةً عَنْ وَادٍ عَظِيمٍ يُحِيطُهُ جَبَلَانِ شَاهِقَانِ مِنَ الْجَنُوبِ وَالشَّمَالِ ..

وَكَانَتْ كَمِّيَّاتٌ هَائِلَةٌ مِنَ الْأَمْطَارِ تَهْطِلُ عَلَى الْوَادِي الْخِصْبِ الْفَسِيحِ ، كَمَا كَانَتْ تَأْتِيهِ مِيَاهُ السُّيُولِ الْغَزِيرَةُ مِنَ الْأَمْطَارِ ، الَّتِي تَهْطِلُ عَلَى الْجِبَالِ بِكَثَافَةٍ ..

وَمِنْ نِعَمِ اللَّهِ (تعالى) على قَوْمِ «سبأ» أنَّهُ وَهَبَ بعضَ مُلُوكِهِمُ الْحِكْمَةَ والْفَهْمَ وحُسْنَ التَّصرُّفِ، فَارْتَقَوْا بِقَوْمِهِمْ خُطْوَةً وَاسِعَةً فِي سُلَّمِ الْحَضَارَةِ والْعُمْرَانِ والتَّقَدُّمِ..

وكَانَ ذَلِكَ بِالتَّحَكُّمِ فِي مِيَاهِ الأمْطَارِ والسُّيُولِ الْغَزِيرَةِ، الَّتِي كَانَتْ تَتَبَعْثَرُ وتَضِيعُ هَبَاءً فِي الصَّحَارِي والْقِفَارِ، دُونَ أنْ يُفِيدُوا مِنْهَا فِي زِرَاعَةِ أرْضِهِمُ الْخِصْبَةِ، مُعْتَدِلَةِ الْمُنَاخِ.. وذَلِكَ بِإقَامَةِ خَزَّانٍ طَبِيعِيٍّ لِخَزْنِ الْمِيَاهِ، يَتَكَوَّنُ جَانِبَاهُ مِنْ جَبَلَيْنِ مُرْتَفِعَيْنِ، وَبِنَاءِ سَدٍّ ضَخْمٍ مُحْكَمٍ مِنَ الْحِجَارَةِ عَلَى فَمِ الْوَادِي الْمُنْخَفِضِ مِنْ نَاحِيَةِ مَصَبِّ السُّيُولِ، بِهِ الْعَدِيدُ مِنَ الْفَتَحَاتِ والْعُيُونِ، الَّتِي يَتَحَكَّمُونَ عَنْ طَرِيقِهَا فِي الْمِيَاهِ.. فَيَفْتَحُونَهَا وَقْتَ الْحَاجَةِ، ثُمَّ يُغْلِقُونَهَا بَعْدَ أخْذِ حَاجَتِهِمْ مِنَ الْمِيَاهِ..

وَبِذَلِكَ تَمَكَّنُوا مِنْ تَخْزِينِ كَمِّيَّاتٍ هَائِلَةٍ مِنَ الْمِيَاهِ خَلْفَ هَذَا السَّدِّ الْعِمْلاقِ، الَّذِي عُرِفَ بِاسْمِ «سَدِّ مَأْرِبَ» وكَانَ لَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَخْزُونِ الْهَائِلِ مِنَ الْمِيَاهِ مَوْرِدٌ عَظِيمٌ لِزِرَاعَةِ أرْضِهِمْ، وَتَحْوِيلِهَا إلَى جَنَّاتٍ وبَسَاتِينَ عَامِرَةٍ بِالأشْجَارِ والثِّمَارِ..

* * *

قَالُوا إنَّ أوَّلَ مَنْ بَنَى «سَدَّ مَأْرِبَ» هُوَ «سَبَأُ بْنُ يَعْرُبَ» الَّذِي

ينتسب إليه قوم «سبأ» ، وأنه وصل إليه سبعين نهرا وقناة تحمل المياه من الأمطار والسيول وتخزنها خلفه .. وأنه جعل في السد سبعين فتحة وعينا تخرج منها المياه ، ويتحكمون في فتحها وإغلاقها عند الحاجة ..

وقالوا إن «سبأ» قد مات قبل أن يتم بناء السد ، وأن «حمير» أكملت بناءه بعده ..

وقالوا إن «بلقيس» ملكة «سبأ» لما اعتلت عرش قومها ، وصارت ملكة عليهم ، أخذ قومها يقتتلون على ماء واديهم .. وأنها أخذت تنهاهم عن التقاتل ، فلم يستمعوا إلى نصحها ، ولم يطيعوا أمرها ..

ويقال إن «بلقيس» غضبت لذلك غضبا شديدا ، فنزلت عن عرشها ، واعتزلت ملكها ، وتركت قومها ، ثم اتجهت إلى قصرها ، فأقامت فيه ، ولم تلتفت لهم ، أو تهتم بهم ، حتى كثر الشر بينهم ..

ولما رأوها فعلت ذلك ندموا على فعلهم أشد الندم ، فتوقفوا عن قتال بعضهم للبعض ، وذهبوا إليها قائلين في ندم :

ـ ارجعي لتجلسي فوق عرشك ، فإننا لا صلاح لنا بدونك ،

وَقَدْ كَثُرَ الشَّرُّ فِينَا بعْدكَ ..

فَقَالَتْ لَهُمْ نَاهِرَةً مُوبِّخَةً :

- إِنَّكُمْ قَوْمٌ لا عُقُولَ لَكُمْ ، وَلَا تُطِيعُونَ مَلِكَتَكُمْ ..

فَقَالُوا لَهَا فِي تَوَسُّلٍ :

- لَقَدْ نَدِمْنَا عَلَى مُخَالَفَتِكِ ، وَمِنَ الآنَ نُطِيعُكِ فِي كُلِّ مَا تَأْمُرِينَ بِهِ ، وَلَا نَعْصِي لَكِ أَمْرًا ..

فَقَالَتْ «بِلْقِيسُ» رَاضِيَةً :

- الآنَ أَرْجِعُ لَكُمْ ..

وَيُقَالُ إِنَّ «بِلْقِيسَ» قَدْ عَادَتْ إِلَى مُلْكِهَا ، وَجَلَسَتْ عَلَى عَرْشِهَا .. وَإِنَّ «بِلْقِيسَ» قَدْ تَوَجَّهَتْ إِلَى الْوَادِي ، فَرَأَتِ السُّيُولَ تَأْتِيهِمْ غَزِيرَةً مِنَ الأَمْطَارِ الْكَثِيرَةِ الَّتِي تَسْقُطُ عَلَى الْجِبَالِ ..

وَيُقَالُ إِنَّ «بِلْقِيسَ» قَدْ وَاتَتْهَا فِكْرَةُ بِنَاءِ خَزَّانٍ ضَخْمٍ لِلْمِيَاهِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، وَإِنَّهَا أَمَرَتْ بِبِنَاءِ سَدٍّ ضَخْمٍ عَلَى أَوَّلِ الْوَادِي الْخِصْبِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، فَلَمَّا تَمَّ بِنَاءُ ذَلِكَ السَّدِّ حَبَسَتِ الْمِيَاهَ خَلْفَهُ ، وَارْتَفَعَتْ ..

وَإِنَّ السَّدَّ كَانَتْ لَهُ أَبْوَابٌ تُفْتَحُ لِإِخْرَاجِ الْمَاءِ فِي الْقَنَوَاتِ وَالأَنْهَارِ الصَّغِيرَةِ ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا الْمَاءُ إِلَى أَرَاضِي الْوَادِي ،

فَيَرَوْنَ بَسَاتِينَهُمْ وَجَنَّاتِهِمُ الْعَامِرَةَ بِالزُّرُوعِ النَّاضِرَةِ وَالْأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ .. وَهَكَذَا كَفُّوا عَنْ قِتَالِ بَعْضِهِمْ لِلْبَعْضِ بِسَبَبِ الْمِيَاهِ ..

وَقِيلَ إِنَّهُمْ بَنَوْا «سَدَّ مَأْرِبَ» حَتَّى لَا يَجْتَاحَ السَّيْلُ وَادِيَهُمْ ، فَيُدَمِّرَ مَنَازِلَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَشْجَارَهُمْ وَزُرُوعَهُمْ ..

وَقَالَ بَعْضُهُمْ إِنَّ قَوْمَ «سَبَأٍ» هُمُ الَّذِينَ فَكَّرُوا فِي بِنَاءِ السَّدِّ ، وَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ بَنَوْهُ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ مُلُوكِهِمْ ، وَإِنَّهُمْ قَدْ بَنَوْهُ بِالْحِجَارَةِ ، وَحَبَسُوا الْمِيَاهَ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ ، حَتَّى ارْتَفَعَتْ إِلَى أَعْلَى ، فَغَرَسُوا الْبَسَاتِينَ وَالْأَشْجَارَ الْمُثْمِرَةَ ، وَزَرَعُوا الزُّرُوعَ الْكَثِيرَةَ ، حَتَّى فَاضَ الْخَيْرُ عَلَيْهِمْ ، وَتَحَوَّلَتْ بِلَادُهُمْ إِلَى جَنَّاتٍ نَاضِرَةٍ ..

* * *

وَأَيًّا كَانَ الشَّخْصُ الَّذِي فَكَّرَ فِي فِكْرَةِ بِنَاءِ «سَدِّ مَأْرِبَ» أَوْ قَامَ بِتَنْفِيذِهَا ، فَإِنَّ فِكْرَةَ بِنَاءِ السَّدِّ هِيَ إِلْهَامٌ مِنَ اللَّهِ (تَعَالَى) ، وَنِعْمَةٌ مِنَ النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ ، الَّتِي امْتَنَّ بِهَا عَلَى قَوْمِ «سَبَأٍ» ..

فَقَدْ كَانَ بِنَاءُ السَّدِّ ، وَخَزْنُ كُلِّ هَذَا الْكَمِّ الْهَائِلِ مِنَ الْمِيَاهِ بَيْنَ الْجَبَلَيْنِ سَبَبًا فِي تَعْمِيرِ وَادِي «مَأْرِبَ» وَتَحْوِيلِهِ إِلَى جَنَّتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ عَنْ يَمِينِ الْوَادِي وَشِمَالِهِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مِنَ الْجَنَّتَيْنِ هِيَ

مَجْمُوعَةٌ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْحَدَائِقِ وَالْبَسَاتِينِ الْمُتَّصِلَةِ بِبَعْضِهَا دُونَ انْقِطَاعٍ ..

هَكَذَا تَحَوَّلَ وَادِى «مَأْرِب» إِلَى مَجْمُوعَةٍ مُتَّصِلَةٍ مِنَ الْجَنَّاتِ وَالْبَسَاتِينِ ، الَّتِى تُشِعُّ بِالْخُضْرَةِ وَالنَّمَاءِ ، وَتَغُصُّ بِالزُّرُوعِ وَالأَشْجَارِ وَالْفَاكِهَةِ وَالثِّمَارِ ، مِنْ مُخْتَلِفِ الأَنْوَاعِ وَالأَصْنَافِ ، وَأَعْذَبِهَا وَأَحْلاهَا ، وَأَنْضَجِهَا وَأَشْهَاهَا ..

وَمِنْ كَثْرَةِ الثِّمَارِ وَطِيبِهَا وَنُضْجِهَا كَانَتْ تَتَسَاقَطُ وَحْدَهَا مِنْ فَوْقِ الأَشْجَارِ .. وَكَانَتِ الْمَرْأَةُ تَسِيرُ فِى بُسْتَانِهَا تَحْتَ الأَشْجَارِ ، وَعَلَى رَأْسِهَا السَّلَّةُ ، الَّتِى تَجْمَعُ فِيهَا الثِّمَارَ ، فَيَتَسَاقَطُ مِنَ الأَشْجَارِ مَا يَمْلأُ تِلْكَ السَّلَّةَ ، دُونَ أَنْ تُكَلِّفَ نَفْسَهَا عَنَاءَ الصُّعُودِ فَوْقَ الأَشْجَارِ وَقَطْفِ ثَمَرَةٍ وَاحِدَةٍ ..

* * *

وَقَدْ بَارَكَ اللَّهُ (تَعَالَى) لأَهْلِ «سَبَأ» فِى النِّعَمِ الْكَثِيرَةِ الَّتِى أَنْعَمَ بِهَا عَلَيْهِمْ ..

بَارَكَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَالسَّكَنِ ..

وَبَارَكَ لَهُمْ فِى الْمِيَاهِ ..

وَبَارَكَ لَهُمْ فِى الْبَسَاتِينِ وَالْجَنَّاتِ ، وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ ..

وَبَارَكَ لَهُمْ فِى الطَّقْسِ وَالْهَوَاءِ ..

وَبَارَكَ لَهُمْ فِى الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ .. وَفِى الأَمْنِ وَالأَمَانِ ، فَحَلَّتْ عَلَيْهِمْ بَرَكَةُ السَّمَاءِ ..

وَكَثُرَتْ نِعَمُهُمْ وَرَفَاهِيَتُهُمْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَإِنْعَامِهِ عَلَيْهِمْ ..

فَمَاذَا طَلَبَ اللَّهُ (تَعَالَى) مِنْهُمْ فِى مُقَابِلِ كُلِّ تِلْكَ النِّعَمِ ؟!

لا شَىْءَ إِلاَّ الشُّكْرَ ..

شُكْرَ النِّعْمَةِ ..

وَالشُّكْرُ لِصَالِحِهِمْ ؛ لأَنَّهُ يَحْفَظُ النِّعَمَ مِنَ الزَّوَالِ ..

لَمْ يَطْلُبْ مِنْهُمْ سُبْحَانَهُ سِوَى أَنْ يَشْكُرُوهُ ..

يَشْكُرُوهُ عَلَى أَنْ جَعَلَ لَهُمْ بَلْدَةً خَصْبَةً طَيِّبَةً ذَاتَ مُنَاخٍ مُعْتَدِلٍ لَطِيفٍ ، وَهَوَاءٍ صِحِّىٍّ نَقِىٍّ ..

يَشْكُرُوهُ عَلَى الْبَسَاتِينِ وَالْجَنَّاتِ ، وَالأَشْجَارِ وَالثِّمَارِ ، وَالرِّزْقِ السَّهْلِ الْوَفِيرِ ، وَالْعَيْشِ الرَّغْدِ الْيَسِيرِ ..

وَفِى مُقَابِلِ ذَلِكَ وَعَدَهُمُ اللَّهُ (تَعَالَى) أَنْ يَغْفِرَ لَهُمْ ذُنُوبَهُمْ ، وَيَرْحَمَهُمْ .. وَأَنْ يُدِيمَ نِعَمَهُ عَلَيْهِمْ ..

فَمَاذَا فَعَلَ قَوْمُ «سَبَأ» ؟!

هَلِ استَجابُوا لِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ ؟!
هَلْ شَكَرُوهُ وحَمِدُوهُ عَلَى نِعَمِهِ ؟!
هَلْ عَمِلُوا مَا يَسْتَحِقُّ اسْتِمْرَارَ النِّعَمِ ؟!
كَلاَّ .. لَمْ يَفْعَلُوا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ..
لَمْ يَقُومُوا بِشُكْرِ النِّعَمِ ويَحْمَدُوا صَاحِبَ النِّعَمِ ..
لَمْ يَعرِفُوا قِيمَةَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ النِّعْمَةِ ..
ولا قَدْرَ مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الرَّفَاهِيَةِ ..
لَمْ يَشْكُرُوا ، ولَمْ يَذْكُرُوا ..
أَعْرَضُوا ..
تَمَرَّدُوا ..
جَحَدُوا ..
كَفَرُوا ..
لَمْ يَلْتَفِتُوا إِلَى أَمْرِ اللَّهِ (تَعَالَى) لَهُمْ ..
لَمْ يُنَفِّذُوا شَرْعَهُ ..
فَمَاذَا كَانَتِ النَّتِيجَةُ ؟!
نَتِيجَةُ العِنَادِ والكُفْرِ وعَدَمِ الشُّكْرِ ؟!

* * *

كَمَا فِى شَرْعِ اللَّهِ الَّذِى لا يَتَبَدَّلُ ، وَسُنَّتِهِ الَّتِى لا تَتَغَيَّرُ وَلاَ تَتَحَوَّلُ أَبَدًا ..

أَخَذَهُمُ اللَّهُ (تَعَالَى) بِذُنُوبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ ..

أَرْسَلَ اللَّهُ (تَعَالَى) عَلَيْهِمْ «سَيْلَ الْعَرِمِ» ..

وَهُوَ السَّيْلُ الْجَارِفُ الطَّاغِى ، الَّذِى يَحْمِلُ فِى طَرِيقِهِ الْعَرِمَ وَهِىَ الْحِجَارَةُ ؛ لِشِدَّةِ تَدَفُّقِهِ وَانْدِفَاعِهِ ، فَاصْطَدَمَ السَّيْلُ بِالسَّدِّ وَحَطَّمَهُ ، فَانْسَابَتْ مِيَاهُ السَّدِّ كَالطُّوفَانِ الْمُفَاجِئِ الْكَاسِحِ ، فَجَرَفَتْ وَأَغْرَقَتْ وَحَطَّمَتْ كُلَّ شَىْءٍ فِى طَرِيقِهَا ..

غَرِقَتِ الْبَسَاتِينُ وَالْجَنَّاتُ ..

تَحَطَّمَتِ الأَشْجَارُ وَالزُّرُوعُ وَالثِّمَارُ ..

ثُمَّ جَفَّتِ الأَرْضُ وَالأَنْهَارُ ..

تَحَوَّلَ الْوَادِى الْخَصِيبُ إِلَى صَحْرَاءَ تَنَاثَرَتْ فِيهَا الأَشْجَارُ الْبَرِّيَّةُ الْخَشِنَةُ ، ذَاتُ الأَشْوَاكِ الْكَثِيرَةِ الْحَادَّةِ ، وَالثِّمَارِ الْمُرَّةِ الَّتِى لا تُؤْكَلُ ، أَوِ الأَشْجَارُ الصَّحْرَاوِيَّةُ قَلِيلَةُ الثِّمَارِ ، كَثِيرَةُ الأَشْوَاكِ ، كَالأَرَاكِ وَالسِّدْرِ أَوِ النَّبِقِ وَمَا شَابَهَهَا مِنَ النَّبَاتَاتِ الصَّحْرَاوِيَّةِ ..

عَمَّ الْخَرَابُ الْبَسَاتِينَ والْجَنَّاتِ ..

جَفَّتِ الأَشْجَارُ وضَاعَتِ الثِّمَارُ ..

خَرِبَ الْوَادِى الْخَصِيبُ ..

خَرِبَتِ الْبَسَاتِينُ والْجَنَّاتُ ..

خَرِبَتْ «سَبأٌ» ..

بَعْدَ الزُّرُوعِ النَّاضِرَةِ ، وَالأَشْجَارِ الْمُثْمِرَةِ ، والثِّمَارِ النَّاضِجَةِ ، والأَنْهَارِ الْجَارِيَةِ ، والظِّلالِ الْوَارِفَةِ ، والْمَنَاظِرِ الْبَهِيجَةِ ، تَبَدَّلَ الْحَالُ ..

فَسُبْحَانَ مَنْ يُبَدِّلُ حَالاً بِحَالٍ ..

سُبْحَانَ مَنْ لَهُ وَحْدَهُ الدَّوَامُ ..

* * *

وَقِيلَ إِنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) قَدْ أَرْسَلَ عَلَى السَّدِّ الْفِئْرَانَ أَوْ حَيَوَانَ «الْخَلَدِ» فَحَفَرَتْ فِى أَصْلِ السَّدِّ الْجُحُورَ ، وَتَكَاثَرَتْ بِصُورَةٍ وَبَائِيَّةٍ ، حَتَّى دَمَّرَتْهُ ، وَجَعَلَتْهُ يَنْهَارُ ..

وَبِرَغْمِ مَا حَلَّ بِأَهْلِ «سَبَأٍ» فَقَدْ ظَلُّوا يَعِيشُونَ فِى بَلَدِهِمْ .. فِى قُرَاهُمْ وَبُيُوتِهِمْ ..

لَقَدْ ضَيَّقَ اللَّهُ (تعالَى) عَلَيْهِمْ فِي الرِّزْقِ .. حَوَّلَهُمْ مِنَ الرَّخَاءِ وَالرَّفَاهِيَةِ إِلَى الشِّدَّةِ وَالْخُشُونَةِ وَشَظَفِ الْعَيْشِ ..

وَلَكِنَّ اللَّهَ (تَعَالَى) لَمْ يُمَزِّقْهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، وَلَمْ يُغْرِقْهُمْ ..

كَانَ أَهْلُ «سَبَأٍ» يَتَنَقَّلُونَ فِي بِلَادِهِمْ ، مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى أُخْرَى وَهُمْ آمِنُونَ مُطْمَئِنُّونَ ، لَا يَخَافُونَ أَحَدًا وَلَا يَخْشَوْنَ جُوعًا وَلَا ظَمَأً ..

كَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يُسَافِرُ دُونَ أَنْ يَحْمِلَ مَعَهُ طَعَامًا وَلَا مَاءً ، وَكَأَنَّهُ لَمْ يَخْرُجْ مِنْ قَرْيَتِهِ ..

وَكَانَتِ الْمَسَافَاتُ قَرِيبَةً بَيْنَ الْقُرَى وَبَعْضِهَا ، وَكَانَ السَّفَرُ مَأْمُونًا ، وَالرَّاحَةُ مَوْفُورَةً لِلْجَمِيعِ ..

وَبِرَغْمِ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنْ تَضْيِيقِ الرِّزْقِ ، فَقَدْ ظَلَّ الْعُمْرَانُ مَوْصُولًا بَيْنَ أَهْلِ «سَبَأٍ» وَبَيْنَ الْقُرَى الْمُبَارَكَةِ «مَكَّةَ» فِي الْجَزِيرَةِ الْعَرَبِيَّةِ ، وَ«بَيْتِ الْمَقْدِسِ» فِي «فِلَسْطِينَ» ..

وَلَكِنَّ ذَلِكَ لَمْ يُرْضِ أَهْلَ «سَبَأٍ» .. لَمْ تُرْضِهِمْ هَذِهِ الْأَسْفَارُ الْقَصِيرَةُ ، الَّتِي لَا يَحْمِلُونَ فِيهَا طَعَامًا وَلَا مَاءً ، وَالَّتِي لَا يَتَعَرَّضُونَ فِيهَا لِمَخَاطِرِ السَّفَرِ فِي رِحْلَاتٍ طَوِيلَةٍ ..

قَالُوا إِنَّهُمْ مَلُّوا هَذِهِ الْأَسْفَارَ الْقَصِيرَةَ ، الَّتِي لَا تُرْضِي غُرُورَهُمْ أَوْ تُشْبِعُ فُضُولَهُمْ ..

بَطِرُوا وجَحَدُوا وظَلَموا أنْفُسهم مرَّةً أُخْرى ..

طَلَبُوا من اللَّهِ الأسْفَارَ الْبَعِيدَةَ ..

دعَوْهُ أنْ يُباعِدَ بيْنَ أسْفارِهِمْ .. وَهَذَا مِنَ الْغَبَاءِ وظَلَامِ الْقَلْبِ ..

واسْتَجَابَ اللَّهُ (تعالَى) دُعَاءَهُمْ ..

مَزَّقَهُمْ اللَّهُ (تعالَى) .. شَرَّدَهُم .. مَزَّقَهُمْ فِي أَنْحَاءِ الْجزيرةِ .. بدَّدَ شمْلَهُمْ .. فصَارُوا أحَاديثَ يرْوِيها الرُّوَاةُ ..

صَارُوا قِصَّةً تُحْكَى على الألْسِنَة ، بَعْدَ أنْ كانُوا أُمَّةً ذَاتَ حَضَارَةٍ وأمْنٍ واسْتقْرارٍ ورَفَاهِيَةٍ ورَخَاءٍ ..

صَارُوا مَضْرِبَ الْمثَلِ للْفُرْقَةِ والشَّتَاتِ ، بَعْدَ الاجْتماعِ والأُلْفَةِ والْعَيْشِ الْهَنِيء ..

* * *

إنَّ فِي هَذَا الَّذِي حَلَّ بِهؤُلَاءِ من النِّقْمَةِ والْعذَابِ ، وتَبَدُّلِ النِّعْمَةِ وتحوُّلِ الْعَافِيَةِ ـ عقُوبَةً على ما ارْتَكَبُوهُ من الْبَطَرِ والْجُحُودِ ونُكْرانِ النِّعْمَةِ ـ لعِبْرَةً ودلالَةً لكُلِّ عبْدٍ صبُورٍ شاكِرٍ علَى النِّعَمِ ، صابِرٍ علَى الْمَصَائِبِ ..

نَدْعُو اللَّهَ (تعالَى) أنْ نكُونَ دائِمًا مِنَ الصَّابِرِينَ فِي الضَّرَّاءِ ، الشَّاكِرِينَ فِي السَّرَّاءِ ..

وقدْ وردتْ قصةُ قومْ «سبأ» فى سُورة «سبأ» . .

قَالَ اللَّهُ (تعالى) :

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ
رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ
مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ
﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا
فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ
أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ
فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ
ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن
سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ [سورة سبأ ، الآيات من ١٥ : ٢١]

(تـمّت)

رقم الإيداع : ١١٢٣٩ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي : ٦ - ٩٥٣ - ٢٦٦ - ٩٧٧